الفـن والثقـافـة

نستطيع أن نقول بوجه عام أن الفن هو التعبير عن العاطفة وهو تعريف واف من حيث أنه لا يميل إلى مذهب من مذاهب الفن خاصة ولا يجنح إلى فلسفة من فلسفاته دون غيرها فأنصار الايدياليزم الذين يرون أن الفن هو عبقرية الفنان، المطبوعة بطابعه، المرسومه بسيمة شخصيته، المركزة في الهاماتة ومشاعره، التي تسمو على الواقع سموا كبيرا من غير أن تتقيد به لا يحاجون في أن العاطفة هي مثار وحيه وينبوع إلهاماته.

وأتباع الرياليزم الذين يحصرون مهمة الفن في تقليد الواقع والتقيد به لا ينكرون ما العاطفة من عمل فذ خطير في المفاضلة بين الأشياء المقلدة وإيثار بعضها على البعض آلا خر ومالها من فضل في حفز الفنان إلى الإجادة والإتقان، فلا خلاف على ما للعاطفة من قيمة واثر في حياة الفن الجميل، ولكن يوجد خلاف بين مردة إلى تحديد موضوع الفن عامة: محل ينبغي له أن يبقى خالصاً لوجه الفن بريئا عما سوى العاطفة والفطرة ؟ أم يجوز له أن يطرق عدا ذلك مواضيع العقل وفروع معرفته وأحكام فلسفته ؟

ويتحمس فريق من الفنانين والفلاسفة للفن الخالص، فن الفطرة والطبع، يزهونه عن أغراض العقل ونوازعه ويبرئونه من نظريات الفلسفة وتأملاتا، فيرون في الموسيقى مثلاً هبة مطبوعة في أذن الموسيقى تتذوق جمال الأصوات وتطمئن إلى مواقع إنسجاماته ومحاسنه وتؤلف منها ما يفتن الأذن ويأخذ بمجامع النفس وينبه فيها إحساساً بديهياً فطرياً من غير حاجه إلى أن يكون لهذا اللحن معنى عقلي يقصد إلى تصوره والتعبير عنه وهكذا. فالتصوير نتاج عبقرية تميز با عين الفنان، تستطيع بفضل ما وهبت أن تتحرى في الألوان جمالاً رائعا، بادياً وخفيا، و أن تعرضه في ساذج للعواطف الفطرية كالحب والألم والبغضاء واللذة، وأما ما خلا ذلك من غايات العقل ومشكلاته فزائد عن الفن الصحيح والإدمان عليه يفسد جوهره ويفقده رواءه وسموه

ولكي نزن هذا الرأي ونقدره ينبغي أن نحدد معنى العقل بوجه عام. فتقول أنه كملكاته هو القوة المفكرة في الإنسان وأما مظاهره وآثاره فهي أشتات المعارف والعلوم،

فعل حق أن اشتراك هذه القوة في إيداع الفن الجميل مما يفسد جماله وروعته؟ وهل حق أن إطلاع الفنان على آثار العقل مما يذهب بروائه ويهبط بسموه؟

ان أراد الفنان بالإطلاع العلمي الثقافي أن يشرح- عن طريق فنه – نظرياته ويبين عن مقاصده ويكشف عن مسالكه فقد ضل عن غايته وتنكب عن طريقه. وغرضه الأول والأخير وهو الشعور الصادق والتعبير عن الشعور تعبيرا جميلا.

أما أن أراد بإطلاعه على العلم والمعرفة أن يزيد آفاقه وأن يهيئ لشعوره مجالاً أوسع للتسامي والاستزادة وأراد التعبير عن كله فهو يعمل في حدوده ويخلص لفنه ويبدع لنا فناً ثرياً لا نحظى بمثله عند غيره من الفنانين الذين ينفرون من العقل والعلم ويطمئنون إلى خالص الفطرة والعاطفة

فالفن هو التعبير عن الشعور، والشعور يتأتى من امتزاج الوجدان بالحياة الداخلية في النفس، والحياة الخارجية في الطبيعية والكون، فليست المسألة أن تأتى التأثيرات من الفطرة أو من الثقافة فكلاهما بالنسبة للشعور سواء، وكل منهما باتصاله بجوهرة يبعث فيه الحياة والقوة والجمال وحق إذن أن عالم العقل – الداخلي والخارجي – يفسح المال أمام الشعور ويبث فيه حيويات جديدة ويمده بعناصر طريفه ممتعة في مبداني الطبيعة والنفس.

فالمصور تشغله مناظر الألوان في الأزهار والورود والأنار والسماوات والوجوه وتتكشف له فيها من عوالم الحسن و الجمال فأن أضاف إلى شعوره المتوقد احاطة بعلم النبات وعلم طبقات الأرض اتسع شعوره بذه الكائنات الطبيعية وعرف من تاريخها القديم والحديث ودقائق أحوالها وأطوارها ما يزيد ه تعمقاً واتصالاً بذواتا ويزيدها امتزاجاً بذاته وإثارة لخياله وبعثاً لإحساساته

والشاعر الذي تشرق نفسه لحب السماء وتتيه حواسه في معارج الأفلاك يزداد إشراقه نورا وتيهه روعة إذا طلع في علم الفلك عن حيوات تلك الأفلاك اللانائية وتلك السدم التي تقصر سرعة الضوء عن بلوغها في ملايين السنين.

وعلى هذا النحو ينير العلم ظلمات النفس ويكشف عن سراديب شخصيتها فيتيح للأدب فرصاً ثمينة لكمال الأداء والتعبير: ففي بادئ الأمر لم يكن الإنسان يدرى من أمر نفسه شيئا خلا الغريزة القاهرة التي بتعهده بالمحافظة على ذاته وأخرى يتعهد هو با ذريته

وثالثة تربط بينه وبين قبيلته. وتماشى الفن مع هذه الغرائز والعواطف يؤدى عنها معانيها وآياتا. واستطاع الموهوبون أن يبد عوا ما هو مبدع ومعجز، وجدت في تاريخ الإنسانية علوم جليلة الشأن تدرس الإنسان: تارة من حيث تاريخه ونشأته وتارة من حيث علاقته بالتمع الذي يعيش فيه ويتأثر به ويؤثر فيه وثالثة فيما يتصل بظاهرات ذاته وغرائبها، فاتسع مجال المعرفة وتيسرت طرق التعبير وليس ثمة شك في أن من يحط علماً بذه العلوم يزداد معرفه بشعوره وعقله وشخصيته، فإذا أراد ذلك أن يعبر عن ذاته فهو يملك من الوسائل ويرى من الخفايا ويطلع على عوالم لا يدرى من أمرها شيئا من لم يدر من أمر هذه العلوم شيئا، فالشخصية الفطرية أفقر بدرجات كثيرة من الشخصية التي يضيء جوانبها العلم. وانتاج الأولى مهما أوتيت من العبقرية والموهبة لاينكن أن يسمو إلى انتاج الأخرى إذا وهبت ما وهبته الأولى من الاستعداد والفطنة.

ولست أريد بذلك – كما قد يظهر – أن أفضل الفن الثقافي على الفن الفطري كما لا يمكن أن أفضل الفن الفطري على الفن الثقافي! ولعل المغالاة في التفريق بينهما ليست إلا خلافاً وهمياً لا يقوم على الحق والواقع، فالفن يعبر عن العاطفة، والعاطفة تؤدى عن فطرة النفس الداخلية، وفطرة الكون الخارجية، وهذه الفطرة – في النفس والكون – تبدى عن عوالم خفية – لا ترى بالعين الساذجة – إذا صوب إليها نور العلم.

فلا يوجد – والحال كذلك – فن فطرة وفن ثقافة وانما الفن واحد من حيث وسائله واحد من حيث موضوعه، إلا أن هذا الموضوع قد يتوسل إليه باستعداد الفنان الفطري وقد يستعان عليه فضلاً عن ذلك بآثار العلم والفلسفة، فلا أستطيع بعد ذلك أن أقيم وزنا لأدلة أنصار الفن الفطري إلا أن اسلم بأن الجهل بشيء خير من العلم به أو أن العماية عن حقيقة موضوع ما يزيد شعورنا به قوة وتعبيرنا عنه جمالاً وروعة

وقد يقال في سبيل ذلك أنه لابد للفن من ستار خفيف من الغموض يكسبه جمالاً وسحرا وأن العلم من شأنه معرفة الحقيقة وكشف الغموض فيفوت بذلك على الفن جانباً جوهرياً من فتنته وسحره

وحقاً أن العلم يجلو حقائق الأشياء ولكنه لا يزعم ولا يمكن أن يزعم أنه يبين عن كل الحقيقية ولا يزال علمنا موجة من النور الخافت في محيط لانائي من الظلام.

وأن وظيفة الفن أن يسمو بالنفس إلى سماوات الجمال، وأن يلتقي بوجدان الفرد مع وجدان الجماعة الإنسانية في شعور واحد، وأن يسلك شخصية الإنسان في وحدة عامة تضم إليها أعماق الأرض وطبقات السماء وهو لن يؤدى مهمته أكمل الأداء ما لم يؤاخ بين نفسه وبين العلم والفلسفة وأنه إذا كانت الثقافة فرض عين على الإنسان لكي يحيى نفسه بالنور والسعادة فمن الحرام البين أن يمنع الفنان من هذا النور وهذه السعادة وهو الذي مهمته في الحياة أن يبث النور والسعادة.